نوم الظالمين

بقلم: د . عبدالقدوس أبو صالح

نوم الظالمين رحمة!

هذا ما كانت جدتي ترددده على مسمع من أمي، كلما رأتني أخلد إلى النوم مع أخواتي الصغيرات، وقد أعيانا التعب بعد أن ملأنا البيت ضجيجا وشغبا، وقلبنا أثاثه رأسا على عقب.

وكنت من الصغر بحيث لم أفهم تلك الحكمة المأثورة.. إلى أن دخلت المدرسة الابتدائية وابتليت بمعلم ظالم، كان اسمه يملؤني بالخوف والهلع.

ولم أكن وحدي من يخاف « رأفت أفندي » ويخشى سطوته .. بل كان الطلاب جميعا يتحاشون لقاءه في الطريق ، ويهربون من مرآه في أبهاء المدرسة.

وكنت تراه يوم مناوبته، يخطر مزهوا كالديك، وعيناه تقدحان شررا، وعصاه في يمناه، وهو ينتظر أن تسنح له الفرصة ليتناول بها طلاب المدرسة جميعا، إذا ترامى إليه صخبهم في إحدى الفسح، أو لم ترق له طريقة دخولهم إلى الفصول أو خروجهم منها.

وما أشد ما كنا نعانيه، نحن طلاب فصله، من ويلات.. ويكفي أننا لا نرفع أعيننا إلى السبورة إلا ونرى بجانبها أنواعا من العصي، علقت على الجدار، كما تعلق السيوف. وقد اتخذ منا معلمنا الكريم «حقل التجارب» لابتكاراته التي لا تنتهي في فنون العقاب.

وكانت للمعلم «تعرفة» حفظها الطلاب، ولم يكن يحيد عنها أبدا... فمن اضطر إلى الخروج من الفصل لأي سبب نال ثلاث ضربات بالعصا قبل أن يغادر فصله.. ومن قصر في واجب مدرسي أو في حفظ درس سابق رفعه «رأفت أفندي» من سالفيه إلى الأعلى، ثم تركه يهوي إلى الأرض مرة واحدة.. فإذا كثر عدد المقصرين، ولم يشأ أن يتعب نفسه في معاقبتهم فردا فردا، أمرهم بالوقوف صفا واحدا، وقد تماسكت أيديهم ثم يقبض بكفه على يد أقرب الطلاب إليه بينما يلمس بيده الأخرى مأخذا كهربائيا، مما يجعل الطلاب ينتفضون مذعورين وكأن بهم مس من الجنون.

ولعل أحدا من الطلاب لا يذكر أنه رأى «رأفت أفندي» إلا والعصا معه.. «فالطلاب عنده أنجاس مناكيد»... فإذا دخل الفصل أهوى بالعصا على أقرب منضدة أمام الباب، فتطير أفئدة الطلاب لهول المفاجأة، ويقفزون وقوفا، وهم يرعدون كالأرانب المذعورة..

أما الراحة القليلة التي كنا نتعلل بها، فهي في الدرس الذي يلي فسحة الغداء، إذ يأتي «رأفت أفندي» وقد كظه الطعام فيهوي إلى المنبر متثاقلا في إعياء ظاهر، ويدير عينيه الذابلتين في الطلاب، وقد انطفأت فيهما وقدة الشرر، ثم ما يلبث النوم أن يغلبه على أمره، فيتنفس الأولاد الصعداء ويأخذون بأطراف الحديث الهامس واللهو الهادئ.. وعندئذ فقط كانت الجرأة تدفعني إلى أن ألكز جاري بمرفقي قائلا :

- انظر... أخيرا نام المعلم والحمدلله!

وكان جاري يجيبني دائما :

- أنامه الله نوم أهل الكهف.. ألا تعلم أن نوم الظالمين رحمة؟!..

ولكن ما أسرع ما تنقلب تلك الرحمة إلى نقمة!.. إذ يتعالى صخب الأولاد، فيصحو «رأفت أفندي» من إغفاءته، ويرى طلابه لاهين عابثين، فيفجؤهم بضربة مروعة من عصاه، تهتز لها أعواد المنبر، وتطير لها أفئدة الغافلين.

وقد فاتني أن أذكر لكم «تعرفة» التأخر والغياب، فما هي إلا دقائق معدودة، يتأخرها الطالب، حتى يتلقاه المعلم بألوان من الصفع والركل، ثم يصدر حكمه عليه بالحرمان من فسحة الغداء ويحبسه مع أمثاله في غرفة خانقة لا يعرف النور طريقا إليها، مما يحمله على التبكير إلى المدرسة قبيل إشراقة الشمس.

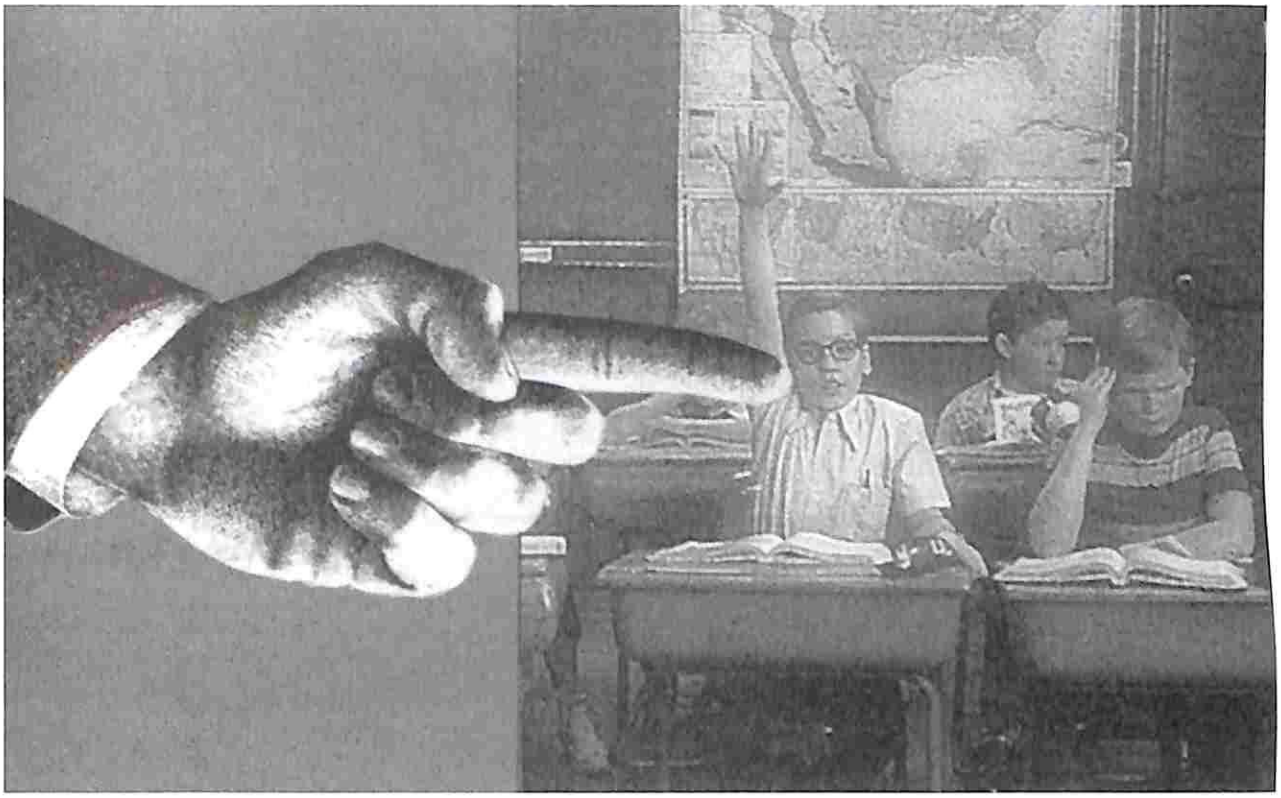

أما التغيب يوما كاملا عن المدرسة فهو عند «نافع أفندي» الذنب الذي لا يغتفر، إلا أن يكفر عنه صاحبه باحتمال سائر ما ابتكره معلمنا العبقري من أفانين العقاب.

ولم تكن شكوى الطلاب إلى ذويهم لتلقى منهم أذنا صاغية، إذ كانت مدرستنا في حي خيم عليه الفقر والجهل، وكان أولياء الطلبة يرون فيما يفعله المعلم الخير كل الخير، وكان الواحد منهم إذا لقي المعلم بادره بقوله : «الله يعطيك العافية.. اللحم لك والعظم لنا»، وويل للطالب الذي يدفعه الظلم إلى الهروب المتواصل من المدرسة، أو التمرد على ذويه المتواطئين مع معلمه!.. ذلك أن مصيره عند «رأفت أفندي» هو الفصل النهائي بحجة أن «عقله ليس في العلم» وأن من الخير له أن يترك المدرسة ليتعلم إحدى المهن..

وحل يوم أسود في حياتي.. اضطررت فيه إلى الانقطاع عن المدرسة، وبكرت في اليوم التالي بعد أن أمضيت شطرا من الليل، وأنا أدعو الله أن ينسي المعلم أمر غيابي، وكان والدي مسافرا، فلم أحمل معي «تذكرة» الاعتذار التقليدية : نرجو غض النظر عن طالبكم.. إلخ.. وكان من المحتمل أن يغفل عني «رأفت أفندي» لولا أن عينه وقعت عليّ عرضا، فرأني أرتجف كالعصفور المبلول بالماء.

– أحمد.. تعال هنا.. لماذا ترتجف؟.. أين كنت بالأمس!..

– يا أستاذ.. أنا.. أنا..

– أنا.. أنا «قالها مستهزئا».. لا بد أنك كنت تلعب مع أولاد الشوارع، فأنا لا أرى على وجهك أمارات المرض.

– يا أستاذ.. لقد.. لقد...

– أه.. لقد.. لقد عجز ذهنك عن اختراع عذر كاذب، فاستعد للاستعراض. وما تذكرت «الاستعراض» حتى انحلت عقدة لساني :

– يا أستاذ لقد ولدت أمي بالأمس.. فاضطررت إلى الانقطاع عن المدرسة !!

يا سلام!.. وما علاقة غيابك بولادة أمك.. هل كنت تقوم بمهمة القابلة!..

وضحك زملائي لهذه السخرية.. وأخذ العرق أ

يتصبب من جبيني، وعادت الحبسة إلى لساني.. ولكني لم أستسلم إلى المصير المروع بسهولة.

- يا أستاذ.. يا أستاذ.. لقد ذهبت لاحضار القابلة ثم أرسلوني لشراء الأدوية وبعض الحوائج المنزلية.

- طيب.. وماذا ولدت أمك؟.. اسمع.. إذا كان المولود صبيا أعفيناك من العقاب، وإن كان بنتا كان عقابك مضاعفا..

- صبي.. ولدت أمي صبيا يا أستاذ!..

هذا ما قلته دون تدبر.. ودون أن أسأل نفسي : لماذا يكره «رأفت أفندي» البنات ويؤثر الأولاد؟ ولماذا يتفق موقفه مع موقف جدتي، التي تقيم مناحة في البيت كلما ولدت أمي بنتا؟!..

وحمدت الله تعالى على النجاة، وحسدني كثير من الزملاء على إفلاتي من عقاب محقق، قلما يفلت أحد منه!!.

ومضت على ذلك أيام. وكنت أهم بمغادرة الفصل مع رفاقي لنستمتع بالفسحة القصيرة فإذا بصوت المعلم يجلجل كالرعد :

- أحمد.. اتبعني إلى غرفة الأساتذة.

وجمدت في مكاني.. ثم تبعته صاغرا، كأني مسوق إلى الإعدام.. إذ لم تكن دعوة «رأفت أفندي» إلا نذيرا بالسوء.

- إيه.. هل تذكر ماذا ولدت أمك؟ صبيا أم بنتا؟!..

واسترجع ذهني بسرعة البرق حادثة التغيب، فقلت بصوت خافت، وقد أوجست شرا:

- صبي يا أستاذ.

- صبي.. ما شاء الله.. ولكني لقيت أباك في السوق بالأمس.. ولما هنأته أكد لي أن المولود بنت.

وأطرقت برأسي، فتابع المعلم كلامه :

- إذن فقد كذبت عليّ عامدا لتنجو من العقاب.. وهذا يعني أنك جدير بأن تنال الجزاء مضاعفا.. فما رأيك؟..

- «دخيلك» يا أستاذ.. التوبة يا أستاذ.

- ستكون التوبة بعد العقاب أيها الكذاب.

- «دخيلك» يا أستاذ.. ألا يكفي أن أمي ولدت بنتا، بينما كنت أمني النفس بأن تلد لي أخا، حتى لا أبقى الصبي الوحيد بين أخواتي الخمس.

وبرقت عينا «نافع أفندي» بالارتياح، وهتف قائلا :

- عظيم.. إذن فأنت لا تحب البنات!..

- أبدا.. «جعل الله الألف منهن واحدة».

- الآن أعجبتني يا ولد.. اسمع.. سوف أعفو عنك ما دمت لا تحب البنات.. ولكن بشرط واحد، هو أن تخبرني ما هو رأي الطلاب في؟.. وماذا يقولون عني؟..

وأخذت أتدبر الإجابة بسرعة.. لقد كذبت عليه بشأن المولود.. فانكشف له كذبي..... وعرضني إلى العقاب.. أو ليس حبل الكذب قصيرا؟.. وإذن لماذا لا أصدقه القول هذه المرة.. وليكن ما يكون.

وهتفت ببراءة الطفل، وبكل ما أملك من جرأة :

يا أستاذ.. أنت ظالم.. والأولاد الكبار يلقبونك بالحَجّاج.. ونحن لا نستريح منك إلا عندما تنام في الفصل بعد الغداء.. ونقول «نوم الظالمين رحمة».

- ماذا؟.. أنا ظالم؟.. ونوم الظالمين رحمة!.. ما شاء الله. ما هذه الفصاحة؟!.. من علمك هذا الكلام يا ولد؟!..

تعلمته من جدتي.. وهي تردده كثيرا عندما أخلد مع أخواتي إلى النوم.

وكنت أختلس النظر إلى «رأفت أفندي» وهو يذرع الغرفة ذهابا وإيابا، ويكرر المثل، حتى خيل إليّ أنه لم يسمع به من قبل.

- إذن أنا ظالم.. ونوم الظالمين رحمة.. ولعلك سوغت كذبك عليّ بقولك : إذا كان نوم الظالمين رحمة.. فالكذب عليهم تسبيح.. أما هكذا؟..

وانكمشت في جلدي موقنا بأن «الاستعراض» سوف يبدأ عما قليل.. ولكن «رأفت أفندي» أخذته الرأفة من حيث لا أدري.. فقد رمقني بنظرة عجيبة، تراءت فيها طيوف من الحسرة والندم.. وامتزج فيها الهدوء والاضطراب.. ثم انطفأت تلك النظرة لتشتعل العينان بالغضب :

- هيا.. اغرب عن وجهي.. ولا تنس أن تشكر جدتك لأن «حكمتها» هي التي أنجتك من العقاب.. ولعلك لن تنسى أيضا أن الكذب لا يفيد صاحبه ولو كان.. كذبا على الظالمين!..■